في شُرفتي

لم يخطر ببال أم محمود أن يقرع خالدٌ باب غرفتها صباحاً ..... خالد ... هذا المستأجر الغريب الأطوار الذي نادراً ما تسمع له صوتاً .... كانت علائم الحزن المرسومة على وجهه المبلل بالدموع توحي بأنه قد نزلت به نازلة ....

- اعتذر عن إزعاجك في هذا الوقت المبكر من الصباح .... لكنني أرغب بالتحدث مع أحد ما ... سأنتظرك في الحديقة ... وسأقوم بإعداد القهوة بنفسي ....
- !!! لا بأس ....

دلف خالد إلى المطبخ ليعد القهوة ، بينما كانت أم محمود تراقبه من خلف ستارتها متعجبة من حاله الجديد ... كان غامضاً بالنسبة لها فلم تكن تعرف عنه إلا ما أخبرها به يوم جاء ليستأجر الغرفة العلوية التي أعلنت عنها في الصحيفة .....كان انطوائياً لا يكلم أحداً ولا يزوره أحد ... كثير العزلة .... يطيل الاعتكاف في غرفته فلا يخرج منها إلا نادراً ..... وكانت أحياناً تسمعه من نافذة غرفتها يتحدث إلى أحدٍ ما رغم أنه كان وحيداً !! توالت هذه الصور على ذاكرتها وهي تضع رداءها و تعيد ترتيب حجابها ....

خرجت إلى الحديقة وجلست على كرسيها ثم راحت تتأمل هذا الشاب العجيب داخل المطبخ وهو يعدّ القهوة و لا يتوقف عن مسح دموعه بين الحين و الآخر ....

خرج خالد إليها حاملاً صينية القهوة ووضعها على الحجر المرمري للبركة التي توسطت الحديقة .... ثم أدار اللولب أسفل البركة لتبدأ قطرات الماء الندية بالتساقط من النافورة مطربة السمع والقلب بأنغامها الهادئة اللطيفة .....

- أعتذر لإيقاظك في السادسة صباحاً ....
- لا بأس ... لكنك أقلقتني بوجهك الحزين وشهيقك الذي لم يتوقف داخل المطبخ ... هل ترغب بإخياري عما جرى ؟
- لا شك أنني ....

- " **مقاطعة ... وبقلق** " هل فعلت شيئاً مخالفاً للقانون !!
- بالطبع لا .... و آسف لأنني سببت لك هذا القلق ..... لكن الأمر كله خير إن شاء الله ... أنا أريد أن أحكي لك ما جرى معي خلال إقامتي عندك هذا الشهر....
- تفضل ... كلي آذان صاغية ....
- الأمر يتعلق بالعصفور الذي أعتاد المجيء إلى شرفتي كل يوم ..... فكما تعلمين ...
- " **باستغراب وسخرية** " عصفور !!!! هل كل هذا البكاء و النحيب من أجـــل عصـــفور !!! أيقظتني في السادسة صباحاً لتخبرني عن عصفور !!!

تذكرت أم محمود أنها تتحدث مع شخص غريب الأطوار يحدّث نفسه في غرفته التي لا يزوره فيهـــا أحد .... وفطن خالدٌ إلى استغرابها و استهجانها لمقدمة حديثه .... بل و أيقن أنها تظنه مجنونـــاً أو سفيهاً .... فقام من كرسيّه مستاءً .....

- عفواً خالتي أم محمود .... فالأمر ليس كما تظنين ... ولست معتوهاً أو سفيهاً لأروي لك قصة من نسج الخيال ... أو أضيع وقتك بتافه الحديث ..... يبدو أنني أخطأت بالحديث معـــك أصلاً ...
- آسفة ... اجلس أرجوك ... أعتذر عن سوء تعبيري ... ولكن لا أخفيك أن وضعك غريـــب جداً ..... و أعتذر عن صراحتي ....
- وضعي غريب !!
- " **بحدّة وقد رفعت حاجبيها** " نعم .... فأنت لا تتحدث إلى أحد .... كثير العزلة .... كنت أسمعك و أنت تتحدث مع نفسك أكثر من مرّة ... ثم تأتي هذا الصباح لتحكي لي عن عصفور .... فكيف لا أرى وضعك غريباً !!

جلس خالد و قد ارتسمت البسمة على وجهه وهو يسمع أم محمود تتحدث عنـــه بهـــذه الجـــرأة والصراحة ....

- لك كل الحق أن تظني بي الظنون ... و أنا السبب في ذلك ... فأنا لم أكن أكثرُ من الحديث أو لقاء أحد من الناس لأنني كنت في عزلة فرضتُها على نفسي .... لكنني هذا الصباح قـــررت أن أخرج من عزلتي و أروي حكايتي لأحد ما ... فهل ما زلت ترغبين بسماعي ؟
- بالطبع ... لم لا .....فقد أثرت فضولي .....

- حسناً .... سأ ...
- " **مقاطعة** " ولكن قل لي .... هل ما زال العصفور فيها !!
- " **باسماً** " ..... نعم ....
- " **وهي ترتشف القهوة** " أيه ..... تفضّل ....
- كان أول يوم لي في هذا البيت الكريم يوماً عادياً كغيره من الأيام .... باستثناء هـــذا التغريـــد الجميل الذي لم يتوقف في شرفتي ..... في البداية حسبته صوتاً عابراً وسيمضي كغـــيره مـــن الأصوات الجميلة ... لكن استمراره كان غريباً ... بل وحتى متميزاً عن غيره من صدح الطيور الجميل .... خرجت يومها إلى الشرفة وقد شدّني هذا التغريد المتواصل .... نظرت حولي فلـــم أجد أثراً لقفص .... إذ أنني حسبت صاحب هذا الصوت بلبلاً سجيناً كغيره من طيور المنـــازل .... لكنني وجدت عصفوراً عادي الشكل على العتبة المربعة أعلى نافذتي .... أما الأمر الأكثر غرابة فهو أن هذا الطائر لم يفزع مني كغيره من الطيور ... بل بقي في مكانه ..... صمت قليلاً ثم عاد للغناء من جديد ..... رحت أتجول داخل الشرفة ليصافح بصري جمالَ العريشة الخضراء و شجيرات المشمش و النارنج من حديقة الجوار ولتداعب أنسام الهواء النقي وعبـــق اليـــاسمين صدري ... ظلّ تغريده يعزف في أذني لحناً جميلاً وكأنه موسيقى تصويرية كتلك التي يضعونها في خلفية المشاهد المصورة ..... أذكر أنني دخلت إلى غرفتي ونمت قليلاً ثم اســـتيقظت وبـــدّلت ملابسي لأخرج ... ورغم ذلك لم يتوقف غناء هذا الطائر .... خرجـــت إلى الشـــرفة ثانيـــة فوجدته كما هو لم يتحرك من مكانه ..... يومها وجدت الأمر مسلياً و ظريفاً .... أذكـــر أنني خرجت من البيت ثم عدت قبيل المغرب ..... زاد دهشتي أن العصفور لم يـــزل يشـــدو بألحانه العذبة فوق تلك العتبة ..... وما هي إلا لحظات حتى طار و ابتعد .... يومها قلـــت في نفسي أن الأمر كان مسلياً و انتهى .... لكنه في الحقيقة لم ينته ..... بل تكرر في صباح اليوم التالي قبيل شروق الشمس بعد أن أدركت صلاة الفجر في آخر وقتها ..... عاد إلى سمعي هذا الشدو الجميل .... بل كان أكثر جمالاً هذه المرة لأنه لم يخالط بعد أصوات الحيـــاة اليوميـــة . خرجت إلى الشرفة لأراه من جديد في نفس المكان ..... أثار هذا العصفور فضولي فأخـــذت كرسياً لأعتليه وأرى إن كان هناك عش لهذا الطائر .... وما أن علوت الكرسي حتى فزع مني وطار إلى الطرف الآخر من الشرفة .... تفحّصت العتبة جيداً فلم أجد فيها أي أثر لأي عـــش وما أن نزلت حتى عاد العصفور إلى العتبة من جديد وعاد للغناء !!!! زاد هذا الأمر من حـــيرتي ... ورحت أتساءل عن سبب تمسّكه بهذا المكان دون سواه !!
- عجيب أمر هذا الطائر .... هيه ... تابع لقد أثرت فضولي ....

- عدت إلى الغرفة وتابعت نومي حتى العاشرة صباحاً .... وصحوت على صوته و أصوات أخرى معه ... لكنه ظلّ متميزاً ... يومها كنت على وشك الخروج ... لكنني خرجت للشرفة من جديد لأتأمل هذا العصفور ... حاولت الاقتراب منه بحذر شديد .... توقف عن الغناء ... تراجع قليلاً للوراء حتى خلته سيفزع من جديد .... لكنه ظلّ مكانه ... صمت قليلاً ... ثم عاد للغناء !!! يومها حسبته طائراً سحرياً .... لكن الأمر كان واقعاً ملموساً رغم غرابته !! ثم خرجت لأمر ما وعدت وقد اشتريت نذراً قليلاً من الحبوب .... وسكبتها في طبق صغير مع كوب من الماء ... وقمت بوضع هذه الوليمة على أرض الشرفة ... ثم ابتعدت لأفسح له المجال كي يترل فيأكل منها ويشرب .... لكنه لم يفعل !!! انتظرته لنصف ساعة فلم يتوقف عن الغناء و لم يترل رغم هذه المغريات التي كانت أمامه !! عدت و استلقيت في فراشي لبعض الوقت ... لم أدر إلا وقد رحت في سبات طويل أفقتُ بعده لأجد نفسي في فترة المغرب ... خرجت إلى الشرفة لأرى ما حصل ..... فرأيت صحن الحبوب على حاله وكذلك الماء ... أما العصفور فكان قد غادر كما فعل في الأمس !!! ولأنني توقعت عودته في اليوم التالي فقد عزمت أن أضع له الطعام و الشراب على العتبة التي لم يبرحها..
- وهل حضر في اليوم التالي ؟
- بالتأكيد وفي نفس التوقيت .... ولكن لم يكن شدوه متواصلاً هذه المرة .... مما جعلني أعتقد أنه كان يأكل ويشرب ثم يتابع شدوه الرائع ..... و لم أستطع تأكيد ظني حينها خشية أن أخيفه .... انتظرت حتى غادر في المغرب وتفحصت العتبة ... فإذا به قد تناول الحبوب والماء و أبقى منها شيئاً يسيراً .... فقمت بتجديد الوليمة .... ومنذ ذلك الحين أحسست انه أصبح لدي صديق جديد ... صرت أقف معه على الشرفة كل صباح وأحاول إصدار صافرات متنوعة الأصوات من فمي لعلني أصل معه إلى لغة تخاطب مشترك ... أو هكذا خُيّل لي !!
- " مقاطعة " وهل كنت تعتقد أنك تستطيع الحديث معه !!!!
- كما قلت لك .... هكذا خُيّل لي .... لكنني لا أخفيك أنني وجدت معه أنساً لم أجده مع بني جنسي من البشر .... حتى أنه صار عندي أفضل منهم ....
- !!!!!
- صرت أحس أن هناك ما يربط بيني و بينه ....
- !!!!
- مضت أيام وأنا أتأمل هذا المشهد الذي يتكرر أمام عيني .. وكنت أتساءل دائماً عن السبب ... لكن ما زاد من سعادتي و دهشتي هو ما جرى معي في الأيام الخمسة الماضية حيث كانت أكثر تميزاً .... يومها جلست على الشرفة أشرب قهوتي ... ووضعت كوب الماء الذي أشرب منه

على مسافة مني .... و إذ بصاحبي ينزل من العتبة ويقف قليلاً بجانب الكوب .... ثم يعلوه ويمد منقاره الصغير ليشرب ..... يومها لم أستطع أن أخفي سعادتي التي تملّكتني و أنا أرى صاحبي قد كسر حاجز الخوف بيني و بينه ..... لا أنكر أنني في البداية اعتقدت أن الأمر جرى بمحض الصدفة أو العطش الشديد ... لكنني لاحقاً وجدت كوب الماء فوق العتبة كما هو !!!

- مليئاً !!!
- نعم ... و لم يشرب منه نقطة واحدة ....
- هيه ... وبعد .....
- تطورت العلاقة أكثر فأكثر إلى درجة أنه صار ينزل ويقف على سور الشرفة بالقرب مني ..... يتنطط يميناً ويساراً ثم يشدو ويشدو بلا توقف ..... في تلك الفترة وصلتُ إلى حالة من شـــبه اليقين أن أمر هذا الطائر لم يكن عادياً ... بل فوق ذلك ....
- " **بابتسامة تحاول كتمها** " كيف ... لم أفهم !!
- كانت بعضٌ من ذكرياتي السقيمة تترى على مخيلتي ... وكنت كلما تذكرت غصص الماضـــي وجراحه أحسست بحاجتي لمن افتح له أبواب قلبي و أبثه حزني و شجني ... و لم يكـــن أمـــامي سوى صاحبي ....
- العصفور !!!!
- نعم ..... كنت أشكو له أسقام الماضي .... وأحدثه عن مرير ذكرياتي و ...
- كنت تتكلم معه إذاً ..... !!!
- نعم ..... في البداية كنت أجد نفسي كالمجنون و أنا أفعل ذلك ...
- " **متمتمة** " صحيح .....
- .... وقد شعرت أول مرة بشيء من الحرج فكنت أتحدث معه همساً .... لكن ما شجعني على الاستمرار أن صاحبي كان يتوقف عن الغناء كلما تحدثت معه وكأنه ينصـــت لي ... ومـــا أن أسكت حتى يعود لشدوه من جديد !!! صرت أجد الأمر ممتعاً بل وأكثر من ممتع .....
- الحديث مع العصفور !!!!
- نعم .... إلى أن كان يوم أمس حيث تحدثت معه عن قصتي مع والديّ .... وكيف أنني لم أكن أكنّ لهما من مشاعر الحب شيئاً ....
- لم تكن تحبهما !!!
- كانا سبب مصيبتي .... وما صرت إليه ...
- كيف ... لقد أثرت فضولي .... عفواً ... هل لي بمعرفة السبب أم أنه أمر شخصي ؟
- لا مانع عندي من التصريح به خاصة و أن صاحبي قد عرفه أيضاً ...

- العصفور !!!
- نعم ..... فلقد حدثته عن طفولتي التي عشتها بين والديّ ... وكيف كانا يخافان عليّ من كل شيء ... كانا يحافظان على سلامتي قبل عافيتهما .... كان كل شيء عندي ... لم أحرم من شيء .. حتى أنهما كانا يختاران لي أصدقائي ويحددان لي ما أفعله وما لا أفعله ....
- وما المشكلة في ذلك ... من الطبيعي أن يخافا عليك ويحرصا على سلامتك ... هذا ما يفعله أي أب و أم في الدنيا كلها ....
- لكن ليس إلى حد أن أصبح أنانياً .... تقودني مصالحي وتتحكم بي ....
- لم أفهم ... أوضح أكثر ....
- من فرط حبهما لي أصبحت أنانياً ... لا أفكر إلا في نفسي ومصالحي الشخصية فقط ... لا أهتم بغيري ولا أكترث لمعاناة الآخرين ... كان شعاري دائماً " **أنا قبل الجميع** " .... حتى عندما تزوجت كان الأمر عندي أكثر من عادي ... كان زواجاً روتينياً محضاً ... أو ما نسميه بالحاجة الاجتماعية لا أكثر و لا أقل .... لم يعرف الحب طريقاً إلى قلبي ... وهذا ما دفع بزوجتي المسكينة للجنون وأن تشكوني إلى طوب الأرض يوم لم تجد مني أية مشاعر حب أو أدنى اهتمام ... كنت ابرد من الجليد و أجفّ من الحطب ... مما اضطرها إلى طلب التفريق ... ومع هذا لم أكن أبالي ... فقد كان والدي مستعداً لدفع مؤخر الصداق دون أن أتكلف عناء شيء أبداً ...
- !!!!!
- كانت علاقتي بوالديّ علاقة حاجة و مصلحة ... أما الحب فلم يكن له في قلبي مكان ..حتى أنني لم أتأثر بوفاتهما و لم تذرف مني دمعة واحدة ... أذكر أنني ذهبت إلى الجنازة مرغماً ...
- !!!!
- بعد فترة من الزمن بدأ وضعي المالي بالانحدار فكل ما تركه لي والديّ ذهب مع الريح بعد أن بعثرته يميناً و شمالاً دون حساب لما تخبأه الأيام .... لم يبق عندي إلا القليل مما يسد الرمق ... ومن خبرة العمل الذي كنت أمارسه ....
- وماذا كنت تعمل ؟
- صائغاً ... أعمل بالذهب و أنقش عليه ... كان هذا عمل والدي أيضاً.
- وما الذي أضطرك إلى السكن بالأجرة ؟
- لقد قررت السفر خارج البلاد بحثاً عن فرصة عمل جديدة ... وقمت ببيع بيتي لتسديد ما عليّ من ديون متراكمة .... و ادخرت ثمن بطاقة سفر بالباخرة إلى أقرب بلد لأبحث فيه عن فرصة

جديدة وأبدأ من جديد .... لهذا قدمت إليك ومكثت شهراً كـــاملاً .... لم أكـــن أرغـــب بالحديث مع أحد أو الارتباط بأحد ... إلى أن جرى ما جرى وقابلت صديقي ....

- صديقك !! .... من ؟
- العصفور ...
- !!!! .... آ .... نعم ... قلت لي أنك تحدثت معه يوم أمس عن أهلك !!!
- هل ما زلت ترينني غريباً ... أو معتوهاً !!
- غريباً .... نعم ..... ولكن لست معتوهاً ... أعتقد أنك تبالغ في تضخيم الأمر أكثر من اللازم ...
- لن أجبركِ على تصديق قصتي لكنني مؤمن أن ما رويته لكِ ليس من نسج الخيال ... بل إن مـــا جرى البارحة كان أكثر غرابة ...
- " **وهي تتثاءب** " لا أجد مانعاً من معرفة المزيد ... هات .... حدثني ....
- تحدثت مع صديقي يوم أمس عن والديَّ ... وذكرت له ما أخبرتك به تماماً ... ولكـــن بعـــد انتهائي ... لاحظت أنه أطال السكوت وكأنه قد فهم معاناتي و أحسّ بألمي ... ثم عاد للغنـــاء ولكن بصوت مختلف هذه المرة .... توقف بعدها وطار إلى العتبة العلوية ... غرد فوقها قليلاً ثم طار بعيداً .... رغم أن الوقت كان ظهراً و لم تكن هذه عادته ... و لم أفهم السبب في وقتـــها ... لكن الحلم الذي شاهدته هذا الصباح بيّن لي كل شيء ...
- حلم أيضاً !!!
- " **مستمراً في حديثه** " وجدتُ نفسي أنظر إلى عصفورين وفرخ صغير يجلس في عش فوق العتبة العلوية .... كان العصفوران يتناوبان على إطعام صغيرهما ويحميانه بأجنحتهما مـــن أســـراب الغربان التي كانت تحوم حولهم ... ثم شاهدت الفرخ الصغير وقد أصبح يافعاً يحاول والداه دفعه خارج العش ليتعلم أولى دروس الطيران .. ثم شاهدت غراباً ينقضُّ على الوالدين ويقتلهما تاركاً هذا الصغير لوحده يهرب بجناحيه الكليلين إلى المجهول ... بعدها شاهدت هذا اليافع وقد كـــبر وطال ريشه وعاد إلى حيث كان يعيش مع والديه .. كان يقف ويغني دون كلل أو ملل ثم يغادر مساءً ويعاود المجيء في اليوم التالي ... ثم رأيت يدي و قد امتدت إليه فطار ووقف عليها وراح يغرّد ..... ثم طار بعيداً ..... نعم إنه هو ... صاحبي .... وكانت هذه قصته .... لقد قصّ عليّ حكايته مع والديه كما قصصت له حكايتي مع والديّ ... رغم أن الفارق بين القصـــتين كبير جداً ....
- وما هو هذا الفارق ؟

- " **أجاب وقد اغرورقت عيناه بالدموع** " إنه الوفاء ..... لقد كان صاحبي وفياً بحـــق والديـــه أكثر مني أنا الإنسان ... كان يأتي يومياً إلى حيث وُلد وحيث رعاه والداه فيغني لهما حباً ووفاءً حتى بعد أن فارقاه .... أما أنا فلم أتعب عيني بدمعة على فراق والديّ .... هل فهمت الفارق ؟
- ..... تقريباً .... آ ...
- أما أنا ففهمته جيداً .... وهذا سبب بكائي .... كما زاد حزني وألمي أنني استيقظت و لم أعـــد أسمع تغريد صاحبي .... خرجت إلى الشرفة فلم أره ... وأيقنت أنه لن يعود أبداً .... لهذا فأنا أبكي فراقه أيضاً ..... لكنني موقن بما يجب عليّ فعله ... فأنا مدين بالوفاء لوالديّ .... والآن أستميحك عذراً فقد قررت الرحيل لأبدأ من جديد ..... أريد أن أصبح إنساناً .....
- !!!!

عادت أم محمود إلى غرفتها لتطلق العنان لفيض الضحكات التي كانت تكتمها خلال جلســـتها ... فقد كانت تخشى إحراج خالد .... لم تغير قناعتها بشأنه .... فمازالت تراه غريب الأطـــوار ..... بل وزادت على صفاته العجيبة أنه صاحب خيال واسع .... ولا شك أنها ستتندر بقصته بين رفيقاتها اللاتي سيحضرن لزيارتها هذا اليوم فقد كان صباحها مميزاً .....

أما خالد فقد خرج من بيتها ساعياً نحو هدفه ..... وصل إلى المدفن وتوجه نحو مرقد والديـــه ثم جثا على ركبتيه وراح يبكي كالأطفال طالباً منهما العفو والسماح .... راح يحكي لهما عن صديقه ومعلمه غير مكترث بمن حوله من زوار المدفن .... اقسم لهما بخالص الحب و الوفاء .... وعاهدهما على البداية من جديد .... ثم خرج من المدفن وسار نحو بيت أهل زوجته الذين تعجبوا من زيارته .. بل و أدهشهم ما خرج منه من عبارات الأسف والأسى على تفريطه بحق زوجته ... ثم خرج وسار على غير هدى .... راح يتذكر تلك الأيام الفريدة والذكريات الآسرة والصدح الساحر الذي سكن قلبه ... غير مكترث بدموعه التي عادت لتغسل وجهه من جديد ... كان يتلفت يمنة ويسرة و يرمق أسراب العصافير التي كانت تملأ السماء بشدوها وكله أمل أن يحظى بلقاء آخر مع صديقه الـــذي أسره بجمال شدوه وعظيم وفائه .....

محمد جمال الدين السباعي

حلب

2006/4/18